أهمية السياق في الدرس الصوتي و الدلالي

بن فطة عبد القادر

الجامعة : مصطفى اسطمبولي معسكر، الجزائر

تاريخ الارسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2019/01/15	2019/03/23	2019/09/23

الملخص:

ركز العلماء على السّياق في فهم النصوص، فهو وعاء يلتقي فيه الصوت بالدلالة فأحاطوا بكلّ أنواعه كسياق الموقف والسياق للغوي، وكانوا أكثر تطرقا إليه في القرآن الكريم لأنّ لغته أرقى من الناحية التركيبية، فأولوه أهمية قادتهم إلى التأصيل والتقعيد.والناظر إلى التراث يجده حافلا بالإبداع والتأليف، ويلاحظ أنّ أصحابه لهم إلمام واسع بعلوم اللغة ، لذلك تمكّنوا من الإحاطة به خاصة في النص القرآني. والقيم الصوتية في اللغة العربية تحمل معاني جزئية و مقاصد عامة، فهي تثير صورا موحية حافلة بالدلالات تؤدي وظائف هامة في النص عن طريق السياق.

الكلمات المفتاحية:أهمية السياق ، لغة القرآن ،الصوت و الدلالة.

Abstract: Scientists focused on the context in understanding the texts. The context is a bowl where the sound and meaning meet. They sorted out all types of contexts such as attitudinal (internal =intentional) and linguistic

(external) contexts, and they touched this much more in the holy Koran because its language was the finest from the viewpoint of synthetics. Thus, they devoted it too much importance leading them to indigenisation and rulemaking. The beholder into heritage will find it full of creativity and authorship, and notes that its owners have a broad knowledge of the science of language. Thus, they were able to take it especially in the Quranic text. The phonological values in Arabic bear partial meanings and general purposes which raise suggestive images bus semantics playing important functions in the text via the context.

المقال:

السياق من معالم اللغة له خصائصه وسماته التعبيرية والدلالية مما جعله موضع اهتمام لدى القدامى والمحدثين. و لأهميته انكبّ أهل العلم عليه لإظهار قدراتهم الإبداعية تنسجم مع طريقة قراءاتهم، فرسموا دوره، وشخّصوا قيمته الصوتية والدلالية.

فهو باب مهمّ في القرآن الكريم، إنّه يمثل جانبا متميّزا من علم الأداء، ويشكّل جوهر الجودة للنصّ. فقد ساهم في تقوية بنية القراءة القرآنية لإبراز الجمال اللغوي للقرآن الكريم من منابعه التي تكسبنا القدرة على التذوق، وتوصلنا إلى صورة مثالية مقنعة لإدراك عظمة كتاب الله.

فالسؤال المطروح إذا كانت المسلّمة تقول إنّ السياق قد عزّز مكانته في التراث، ونال حظه لدى اللغويين المحدثين، فهل حقّق وظيفته الصوتية و الدلالية في بناء النص القرآني؟

علاقة السّياق بالصوت و الدلالة :

إنّ العلاقة بين الصوت ودلالته مرتبطة بالسّياق، فالصوت بدلالته السياقية المختلفة تكسبه تنوعا دلاليا. فقد تعمّق العلماء قديما فيه لضبط معاني الألفاظ، و تفسير النصوص تفسيرا سليما،

وقد التفت إليه أهل البيان في موضوع النظم ٍ (النظم توخي معاني هذا العلم وأحكامه فيما بين الكلم.) [1]

و أشادوا بأهميته في معاجمهم (السّياق لغة: من السوق يقال: انساقت الإبل، وتساوقت إذ تتابعت، والمساوقة: المتابعة، كأن بعضها يسوق بعضا. ويطلق الاتساق أيضا على الانتظام، و النظام: العقد من الجوهر، والحرز ونحوهما، سمي بذلك لنظمه الجوهر والحرز بعضه إلى بعض ي نظام واحد، واتّساق واحد.) [2]

و هو من أكبر القرائن الدالة على معاني الألفاظ فقد أفاض الأصوليون في الحديث عن علاقة السّياق باللفظ والمعنى لأنّ الاحتكام إليه في توضيح المجمل تخصيص العام ، وتقييد المطلق. والدليل هو أنّ أول من استخدمه الشافعي250ه فقد خصّص له بابا في كتابه الرسالة (وتبتدئ العرب الشيء من كلامها يبين أول لفظها فيه من آخره ، وتبتدئ الشيء يبين آخر لفظها منه من أوله.) [3]

و يعد دعامة للتفسير الصحيح (فلا محيص للمتكلم عن رد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره،و إذ ذاك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلف ، فإن فرق النظر في أجزائه ، فلا يتوصل به إلى مراده ، ولا يصح الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعض.) [4] و يختص بموقع اللفظ داخل الجمل و يستثمر المعنى الداخلي.

فالأصوليون اتّخذوا السّياق لإظهار دلالة اللفظ في النص الشرعي معتمدين على القرائن السّياقية. فلجوءهم إلى السّياق حين يخشون عدم الوفاء بالمعنى ،و قد وضعوا ثلاثة ضوابط لفهم دلالة السّياق، قال الشاطبي590ه بقوله (معرفة مقاصد كلام العرب إنّما مداره على مقتضيات الأحوال،

---

[1]–الجرجاني(أبو بكر بن محمد)،دلائل الإعجاز،ط8 مكتبة الخانجي القاهرة 2004م ، ص84

[2]– ابن منظور(محمد بن علي)،لسان العرب،مادة سوق، دار صادر بيروت،. 1963م

[3]– الشافعي(محمد بن إدريس)، الرسالة، تحقيق: أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية بيروت، ص52

[4]– الشاطبي(أبو قاسم بن محمد)، الموافقات، دار الفكر العربي بيروت، 413/3

وحال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب،أو ، أو الجميع.) [1] فالأصوليون اعتمدوا على السّياق في فهم معاني النصوص الشرعية ، وهذا بالاستعانة بالقرائن كما تناولوا السّياق اللغوي في الأمر والنهي (وهي صفتا التكلف تنصان في التشريع على وضع الحكم لأفعال المكلّفين طلبا بالأمر على أوجه دلالته المختلفة من وجوب وإباحة)[2].

أمّا السّياق بالمعنى الواسع فيقصد به كل القرائن التي تساعد على الوقوف على مضمون النص الشرعي ، وهذا النوع اختصّ به الأصوليون فعلم النص لا بدّ له من علامات مكتوبة أو منطوقة تساعد على تحديد المبنى لكنّ الوصول إلى المعنى يحتاج إلى قرائن معنوية ولفظية .

فالسّياق بدلالة الألفاظ يستوعب ما تحمله الآيات القرآنية، و يحدّد نوع الأساليب في إزالة الغموض وإظهار الفروق الدلالية بين الألفاظ.

أمّا عند المفسرين فالحاجة ماسة إلى كشف أبعاد النص الدلالية معتمدين على المعطيات اللغوية، فقد كانت لهم رؤية واضحة المعالم في طرق تناوله أكثر من غيرهم (إنّ التفسير علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاته و أحكامه الإفرادية و التركيبية ومعانيه التي تحمل عليها حاجة التركيب و تتمات ذلك.) [3] فألفاظ القرآن ودلالاتها تستحق مراعاة السياق و لذلك استثمره المفسرون في كتبهم برهانا على تعيين دلالة كلمات القرآن.

لقد اهتمّ المفسرون بالسياق،و استعانوا به في الإبانة عن المعنى المراد للشارع الحكيم. قال الزرقاني1122ه(أن يطلب المعنى من القرآن،فإن لم يجده طلبه من السنة لأنّها شارحة للقرآن، فإن أعياه الطلب رجع إلى قول الصحابة،فإنّهم أدرى بالتنزيل و طرقه و أسباب النزول) [4]

---

[1]– نفس المرجع ،146/4

[2]– الطلحي ،دلالة السياق، رسالة دكتوراه جامعة أم القرى المملكة السعودية ، ص12

[3]– أبو حيان(محمد بن يوسن الغرناطي)،البحر المحيط، دار الفكر بيروت 1992م ، 127/1

[4]– الزرقاني(محمد عبد العظيم)،مناهل العرفان ،ط2 دار الكتب العربي بيروت 2003م ، 50/2

ولم يقف المفسّرون بالسّياق عند معرفة دلالة اللفظ فقط وإنّما تجاوزوا ذلك لتحليل النص الكامل للآية على نحو وصلوا فيما بعد إلى الحديث عن التناسب بين الآيات و بين السور. وقد وضح ابن تيمية 661ه ذلك من خلال دراسته لهذه المسألة(ينظر في كل آية و حديث بخصوصه و سياقه ، وما بين معناه من القرائن والدلالات، فهذا أصل نافع عظيم مهم، في باب فهم الكتاب والسنة.)[1]

فالسّياق عند المفسّرين أصل من أصول التفسير يزيل الإشكال عن معاني الكلمات و يدفع الاضطراب عن آيات الكتاب، ويوضح الظروف والمواقف التي ورد فيها النص.

أمّا عند البلاغيين فللسّياق قيمة هامة فهو يخلق المناسبة بين الصوت ودلالته ، فالاهتمام لا يقف عند إبراز هذه المناسبة بقدر ما يفصح عن مطابقة الكلام بذوق مميز ماثلا عند البلاغيين،أو انتقاء الألفاظ التي تلائم الموقف.

فالجاحظ255ه ضبط مميزات التراكيب البديعة وفق مقاييس بلاغية تهم اللفظ في مجاله الإفرادي ثمّ في صلته بالمعنى بغية فهم ارتباط الوحدات في السياق الواحد وهذا ما أسماه بالنظم.

وتفطّن الجاحظ إلى أهمية السّياق ودعائمه فأحصاها(و جميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد:أولها اللفظ ،ثمّ الإشارة ، ثمّ العقد، ثمّ الخط ،ثمّ الحال التي تسمى نِصبة)[2] ما ذكره الجاحظ من عناصره قد سبق به المحدثين الذين اصطلحوا على تسميته بالسّياق اللغوي وغير اللغوي.

كما أنّه يضمن القيمة الفنية لعلاقة الصوت بمدلوله. فالسّياق عنده نوع من أنواع البيان جار في القرآن وكلام العرب فدلالته مبنية على الذوق، فهو في القرآن الكريم يدل على دلالة اللفظ يستوعبها المتلقي بمساعدة القرائن السّياقية ، كما أنّه يعلل انتقاء الألفاظ لكل لفظ معناه ، كما يبين

[1]– ابن تيمية (تقي الدين بن عبد السلام)،مجموع الفتاوى، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف 1416ه، 18/6

[2]– الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر) ،البيان و التبيين،ط1 شرح ،عبد السلام محمد هارون ،ط3 1960م، مكتبة الخانجي مصر1/76

عن المحذوفات و هذا دليل على الإعجاز القرآني . فدراسة النص في ضوء السّياق يؤكد أنّ كلّ الألفاظ قد ذكرت في مواقعها المناسبة ، و أنّ دلالتها لا تتحقق إلا بذكر تلك المواقع.كما أنّه يكشف عن الانسجام بين الترتيب الزمني تبعا لأسباب النزول و هذا ما نلمسه في القصص القرآني.

أمّا الجرجاني471ه فقد أسهب في الحديث عن اللفظ و دلالته، و هذا بمراعاة السّياق و خاصة في النص القرآني الذي تميّز بوضع الألفاظ في مواضعها، وترتيبها ترتيبا دقيقا، والتنويع في الخطاب من تخويف وتنبيه وتذكير مدعّما بالأدلّة.

كما أشار إلى تماسك الكلمات و ملاءمتها للمقام(النظم هو توخي معان النحو في معاني الكلم،و ذاك أن من شأن إضافة الاختصاص فهي تناول الشيء من الجهة التي تختص منها المضاف إليه،فإذا قلت(غلام زيد)تناولت الإضافة(الغلام)من الجهة التي يختص منها (زيد) و هو كونه مملوكا.) .[1]

و أقرّ البلاغيون أنّ في علم المعاني وجوب معرفة مضمون الكلام من خلال القرائن ،وأثبتوا الصّلة المتينة بين علم المعاني و السّياق في إدراك دلالة الألفاظ . كذلك علاقته بعلم البيان (الكلام على ضربين : ضرب آخر تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده...وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثمّ تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض، ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة و التمثيل.) [2]

كما تناول اللغويون سّياق الموقف لكن تحت مصطلح الحال ،وأوّل من اعتمده الخليل170ه و هذا لإظهار التركيب ودلالته، وقد استفاد منه النحاة ، كما تعرّض إليه سيبويه في تحديد معاني الألفاظ (اعلم أنّ من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين، واختلاف اللفظين والمعنى واحد ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين. فاختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو:جلس وذهب.واختلاف

[1]– الجرجاني ، دلائل الإعجاز،ص262

[12]– نفس المرجع،ص 362

اللفظيين والمعنى واحد؛نحو:ذهب وانطلق .واتفاق اللفظين والمعنى مختلف، قولك،وجدت عليه من المَوْجِدة ووجدت إذا أردت وجِدان الضّالة و أشباه هذا كثير)[(1)]

أمّا ابن جني377ه فقد كشف عن الأحوال الصوتية المواكبة للفظ (التطويح ، والتطريح)و هذا إشارة إلى دلالة على معنى اللفظ. فالسياق عنده تناسب دلالة الكلمة مع دلالات الكلمات الأخرى الواردة في التركيب.

فلغويو العرب لم يكونوا غافلين عن علاقة السّياق بالصوت و الدلالة.لكونه أساس بناء النص وتفسيره وجزءا من نظام اللغة، فلا يمكن معرفة معنى اللفظ إلاّ في إطار السياق الذي وردت فيه، فلكلّ كلمة وزنها حين تستقلّ بدلالتها.

فقد اتّخذ علماء العرب السياق وسيلة لمعرفة دلالات الكلمات، و اعتمدوا عليه لفهم مراد الكلام عموما ومقصود القرآن خصوصا. فإهماله في تحديد دلالة اللفظ يؤدي إلى الوقوع في الخطأ.

فلمعرفة أيّ دلالة كلمة فلا بدّ من السّياق فأمّا خارجه فإنّ الدلالات تختلف(إنّ الكلمة خارج السياق تحتمل معها كل ما يمكن أن يثيره من دلالات يحتمل أن تؤديها ، ولهذا لا يمكن الوقوف على المعنى المحدد للكلمة ، لا من خلال إنجازها performance أو أدائها في سياق مقالي ومقامي محددين)[(2)]

فالقدامى اهتموا بالجانب التطبيقي في دراسة الصوت ودلالته فاحتكموا إليه للإفصاح عن أسرار هذه المسألة ، وساعدهم في ذلك إحاطتهم بعلوم اللغة .

أمّا المحدثون فقد تناولوا موضوع السّياق وعلاقته باللفظ والمعنى متأثرين بالغربيين كفيرث ومنهم تمام حسان حين تطرّق إلى الظواهر السّياقية كالإدغام حماية للنظام اللغوي من اللبس. و ركّز على أهمية الذوق العربي في حرصه على قوة الصلة بين الصوت ودلالته.كما أشار إلى

[1]–سيبويه (عمرو بن عثمان بن قنبر)،الكتاب ، تحقيق : عبد السلام هارون ط2 عالم الكتب بيروت 1983م،2/24

[2]– هادي نهر، علم الدلالة، دار الأمل للنشر الأردن، ص296ــ 297

ظاهرة الموقعية كالوقف والتأليف الذين يحققان استقامة المعنى على أساس اللفظ المناسب لتفادي ما تكرهه اللغة من تنافر وتماثل.

و يرى أنّ السّياق وحده لا يكفي لإبراز المعنى الدقيق للألفاظ فلا بد من العنصر الاجتماعي (ففي الغالبية من أمثلة دلالة السّياق يجد المرء قدرا عظيما من الكمال في الدلالة على المعنى،و لكن هذا القدر وإن عظم لا يمكن أن يلهينا بما فيه من عنصر كفاية النص عن تطلب العنصر الاجتماعي في المنطوق.) [1]

وكان تمام حسان قد ألمّ بالدراسات الغربية الحديثة في الميدان اللغوي مع إحاطته بالتراث العربي القديم، فاستغلّ ما جمعه في علاقة المعنى بالسّياق ليطبّقه على اللغة العربية مادامت مؤهلة لتقبّل الفكر الإنساني (ومن هنا دعت الحاجة المنهجية إلى تشقيق المعنى إلى ثلاثة معان فرعية أحدهما المعنى الوظيفي وهو وظيفة الجزء التحليلي في النظام أو السّياق على حدّ سواء. والثاني المعنى المعجمي للكلمة و كلامها متعدد و محتمل خارج السّياق وواحد فقط في السّياق و الثالث المعنى الاجتماعي أو معنى المقام وهو أشمل من سابقيه هو يتّصل بهماعلى طريق المكانة لأنّه يشملها و بالمقام معبرا عن معنى السياق في إطار الحياة الاجتماعية.)[2]

إلى جانبه كمال بشر الذي يقرّ بضرورة وجود السياق للربط بين اللفظ والمعنى و قد سماه بالمسرح اللغوي لكنّه آثر مصطلح المقام أثناء التحدّث عنه(و الاهتمام بالمقام أمر لا يختلف فيه أحد، بل هو مما يصر اللغويون المحدثون على مراعاته ، ولكن لا بالصورة التي تبناها علماء العربية ، و إنّما على وجه آخر.) [3]

[1]– تمام حسان، اللغة بين العربية بين المعيارية و الوصفية، عالم الكتب القاهرة،ص121

[2]– تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، ص28ـــ 29

[3]– كمال بشر، دراسات في علم اللغة، ط1986م دار المعارف مصر، ص57

و يرى أنّ رؤية القدامى للسّياق كانت ضيقة فهي لا تعدو انتقاء الألفاظ المناسبة لتحقيق المعاني الصحيحة فقد وقفوا في فهم مسائل مهمة في الدرس اللغوي ، ولكنهم استثمروها بطريقتهم الخاصة، وآثروا في بحثهم على الجودة ، بالحثين عن الحقيقة كيفما كانت.

وانضمّ إليهما محمود السعران الذي انطلق في معالجته لهذه المسألة من أفكار الغربيين وبالضبط فيرث ومالينوفسكي "نعم إنّ كلمة CONTEXT (السياق) كانت متداولة بين اللغويين من قبله ولا تزال متداولة بينهم، ولكن مالينوفسكي أضفى على الاصطلاح (سياق الحال) معنى خاصا ليس هنا مجال التعريف به، ثمّ تطوّر هذا المصطلح تطورا آخر باستعمال فيرث نوع من التجربة من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام.) [1]

كما تبنىّ فكرة الربط بين السّياق و الجانب الاجتماعي لإظهار وظيفة المتكلم في الموقف الكلامي.

أمّا الغربيون فقد تناولوا السّياق بالّتنظير و الضبط في الحقل اللغوي، و من الأوائل الذين عالجوا نظرية السّياق دي سوسور الذي تعمّق في البحث في اللغة و فرّق بينها و بين الكلام(إنّ الجملة أحسن نموذج للسّياق لأنّها من مشمولات اللفظ (الكلام)لا اللغة ، أفلا ينجز ذلك أن يكون السّياق من مشمولات اللفظ.) [2] وانطلاقا من هذا التمييز صنّف السّياق إلى صنفين ثابت لا يتغيّر و يندرج تحت اللغة كالأمثال، والثاني حرّ ينتمي إلى الكلام

إلى جانب دي سوسور ساهم فيرث في بلورة نظرية السّياق حتى يكون للمدرسة الإنجليزية دور كبقية المدارس الأخرى . وقد ركّز على سياق الموقف، و ساعده في ذلك إحاطته بعلم اللغة و اطّلاعه على الفكر الإنساني ، فقد نظّر للسّياق ، واجتهد على أن تكون له مكانة في الدراسات اللغوية (إنّ دراسة اللغة بشكل عام . وكذلك دراسة المسائل اللغوية الأخرى، من كلمات و

[1]– محمود السعران، علم اللغة، دار النهضة بيروت، ص310

[2]– دي سوسور،دروس في الألسنية العامة ،تعريف صالح القرمادي، محمد الشاوش، محمد عجينة، ص188

أصوات و جمل هي دراسة دلالية لمعاني هذه العناصر.) [1] فهو يؤكّد على أنّ للمعنى دورا كبيرا في السباق بدلا من علاقته باللفظ.

فانفراده بهذا الرأي عرّض نظريته للنقد (إنّ فيرث لم يقدم نظرية شاملة للتركيب اللغوي، واكتفى فقط بتقديم نظرية للسيمانتيك[2] مع أنّ المعنى يجب أن يعتبر مركبا متن العلاقات السياقية ، ومن الأصوات و النحو و المعجم والسيمانتيك)[3]

كذلك أولمان ستيفن الذي رأى أنّ الكلمة ليس لها دلالة إلاّ في إطار السّياق ، و أنّ النصوص لا تكون مجدية بدون الالتفات إلى السّياق (إنّ السّياق ليس مقصورا على معناه التقليدي و هو النظام اللفظي للكلمة و موقعها من ذلك النظام و إنّما يشتمل الكلمات والجمل الحقيقية السابقة فحسب، بل القطعة كلّها ، و الكتاب كلّه ، كما ينبغي أن يشمل ما يتّصل بالكلمة من ظروف وملابسات)[4]

فالذي ذهب إليه قد سبقه إليه العرب من أهل العلم ومنهم المفسرون الذين اشترطوا معرفة أسباب النزول و المكان للوقوف على السياق.وكان النص القرآني المؤسس الأول لها ما جعل أهل اللغة يثبتونها في مؤلفاتهم رغبة في استجلاء مظاهره.و لما كانت القراءات العشر هي الهيئة الأساسية التي احتضنتها حرص أصحابها على ضرورة التلطف في الانتقال من موضع إلى آخر في قراءتهم مع مراعاة التناسب بين الصوت ودلالته.

فالقراءات القرآنية دعمت هذه المسألة لتحقيق غاية الإبلاغ و التوصيل في ميلاد هذه الظاهرة اللغوية التي تولدت عنها تصورات ذهنية عاينت هذه العلاقة ضمن رصيد علمي.دفع إلى إكمال البحث الصوتي والدلالي لوعي المحدثين بأهمية اللغة التي ترتكز على الانسجام بين هذين القطبين.

---

[1]– مصطفى لطفي ، اللغة العربية في إطارها الاجتماعي ،ط51982م معهد الأنماء العربي بيروت، ص32

[2]–السيمانيتك:شبكة بيانات بالمعنى ،أي أنّه يمكن استرجاع البرامج الحسوبية الخاصة.

[3]– أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ط51998م عالم الكتب القاهرة، ص73

[4]– أولمان ستيفن، دور الكلمة في اللغة ،ترجمة كمال بشر مكتبة الشباب القاهرة 1962م ، ص62

قيمة السياق في بيان أثر الأصوات في دلالة الألفاظ القرآنية:

إنّ القرآن يرسم منهجا مستمرا قي علاقة السياق بالدلالة انطلاقا من البناء الصوتي من أجل الإبانة عن المقاصد، وهذا دليل ناطق على أنّه يفضي على الآيات دقّة النظام المحكم في جميع المستويات.لا يمكن استخراج دلالة إلاّ عن طريق السياق،وتحقيق الدلالة إنّما جاء متناسقا مع طبيعة الأصوات وهذا من عجائب لغة القرآن، فالمعنى يخضع لنظام صوتي و إيقاع موسيقي متميز(إنّ دقّة المعنى تتّفق مع جرس الحرف المختار،فكأنّ هناك اختيارا مقصودا للصوت ليؤدي المعنى المغاير لما يؤديه الصوت الآخر.) [1]

فهذه العلاقة لا نجدها كاملة إلا في القرآن الكريم لأنّه يمثل المثل الأعلى للسان العربي، أمّا في غيره فقد نجد بونا بين الصوت والمعنى، و هذا راجع لعامل الزمن ،هذا ما أكده جني (لأنّ لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا وتقصر أسبابها دوننا .) [2]

فالعلاقة وثيقة بينهما في القرآن و هذا ما يحمله النسق الصوتي ففيه تبدو ظاهرة الانسجام المناسب بين الصوت والمعنى قد أشار إليه القدامى في إظهار فصاحة الكلمات أو العبارات انطلاقا من أصواتها(و يعد ما قدمه علماؤنا في هذا الميدان جهدا عظيما استهدف الوصول إلى إدراك العلاقات بين الأصوات انسجاما أو تنافرا،والوقوف عند قوانين الانسجام و التنافر وغير ذلك)[3] إنّ الانسجام الموجود بين اللفظ والمعنى يغيب ظواهر سلبية كالتكرار، ويجعل الصوت واضحا عن طريق بعض المظاهر كالفاصلة لتقوم بدورها في السياق القرآني .فهي لا تقتصر على النظم و إنّما تراعي المعنى.فتلاؤم الصوت مع المعنى يثري دلالة الكلمات و يكشف عن مضمونها.

إنّ استقلالية اللفظة بحروفها يعطيها صوتيا رنة متميزة عن غيرها من الألفاظ التي تشاركها في المعنى نفسه.فالألفاظ لها دلالة محتملة من ناحية،وارتباط معجمي عندها يرى ضرورة النظم قال

---

[1]– حسام سعيد النعيمي،الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني، دار الرشيد للنشر العراق، ص277

[2]– نفس المرجع،164/2

[3]– خالد قاسم بني دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن، عالم الكتب الجديد إربد الأردن، ص17

الخطابي388ه(هو لجام الألفاظ،وزمام المعاني ،به تنتظم أجزاء الكلام ، و يلتئم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس ليتشكل بها البيان .) [1]

إنّ الكلمات القرآنية لها دور ضروري في السياق للدلالة على المعنى ،كما أنّ لها دورا في تناسب الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك أو يخضع النظم لأحد الأمرين. فالقرآن الكريم يستعمل الكلمات المترادفة التي تكون دلالتها دقيقة .

كما انفرد القرآن الكريم بميزة و هي أنّه ينتقي للمفردة موضعا معينا و يستدل بها غيره ، وقد يكون الموضوع واحدا إلا أنّ المفردة المنتقاة تؤدي مدلولها الخاص. ومن الكلمات التي حرص القرآن على وضعها في سياقها المناسب الغيث والمطر قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيّ الْحَمِيدُ) الشورى 48 قال تعالى: (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مّطَراً فَسَآءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ) الشعراء 177 (فالغيث لغة المطر) [2] و(المطر الماء المنسكب من السماء) [3]،ولكنّ دلالة الكلمتين مختلفتان وهذا حسب السياق فالغيث يقصد به النعمة العظيمة التي رزق الله بها العباد والأنعام لأنّ السياق يتحدّث عن اليأس الذي أصاب قريشا ،وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لهم فالغيث هو المطر الذي يأتي بعد الجفاف . أمّا المطر فدلالته العذاب الذي أنزله الله على قوم نوح و الانتقاء ينسجم مع السياق الذي صوّر طغيان قوم نوح و العقاب الرباني المسلّط عليهم .

كما يلاحظ التناسب بين دلالة الكلمتين و التركيب الصوتي لهما، فالغيث بخصائص أصواتها تخدم السياق و الدلالة ،فالغين صوت استعلاء مع استفال الياء و الثاء و هذا يتماشى وصورة نزول الغيث ما يحقق الفونيم فوق التركيبي وهو التنغيم بين الارتفاع و الانخفاض . أمّا كلمة المطر فأصواتها الثلاثة تتميّز بالصفات التالية فالميم صوت مستفال والطاء له نبرة قوية واضطراب

[1]– الرماني،الخطابي،الجرجاني.ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق:محمد زغلول سلام و محمد خلف الله. 36/1

[2]– ابن منظور، اللسان، مادة غيث دار صادر بيروت 1963م

[3]– نفس المرجع ـــمادة مطر

لانتمائه إلى القلقلة ،أمّا الراء فهو تكراري فاجتماع هذه الصفات يعكس هيئة المطر أيّ العذاب النازل على قوم نوح عليه السلام.

ما يلحظ هو أنّ انتقاء هذين الكلمتين يجسّد المعنى المقصود ،و يتواكب مع السياق إضافة إلى التناسق مع طبيعة الأصوات الموجودة فيهما.

من الألفاظ التي خصّها القرآن بدلالة محدّدة وفق السياق الذي جاءت فيه كلمة (مسجور) قال تعالى: (وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ) الطور 6 فالكلمة من الفعل سجر يسجر سجرا أي أوقده أمّا دلالتها في موضعها من الآية فيقصد بها البحر المملوء بالماء (إنّ وصفه بالمسجور للإيماء إلى الحالة التي كان بها هلاك فرعون بعد أن فرق اللّه البحر لموسى و بني إسرائيل ثمّ أسجره ،أي أفاضه على فرعون و ملئه.) [1] فالدلالة التي تضمّنتها الكلمة فيها إيحاء إلى يوم القيامة وهذا من خلال السياق ما يؤكّد قوله تعالى: (وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ) التكوير 6 لقد رأى بعض المفسرين كالطبري ت 310ه أنّ دلالة الكلمة تدلّ على امتلاء البحر نارا ، فلا يمكن الوصول إلى الجزم بهذا إلاّ بإتباع السياق الذي تظهر فيه هذه الدلالة بكيفية لا تقبل التأويل

ارتقى القرآن في استعماله للكلمات إلى مستوى عال ،وجعل السياق ميدانا تنشأ فيه لإثارة الدلالة المقصودة فيكوّن دائرة شاسعة تستوعب دقائق المعاني ،و يدعّم المقاصد وصولا إلى المبتغى قال تعالى: (سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ) القلم 16 عند التأمل في كلمة (الخرطوم) نجدها تدلّ على شيء غير عادي فلا يصلح في موضعها غير تصوّر وضاعة المتحدّث عنه ، وتنطوي تحتها الكثير من ملامح الاحتقار والازدراء لأنّ الخرطوم ما تقدم أنف الفيل والخنزير ،فالمتلقي يلتمس دقّة التصوير الذي قدّمه القرآن ليفظع الجاحدين (فالقرآن يصوّر حالة الوليد بن المغيرة و هو مصاب في أنفه في غزوة بدر،فبقي أثره ، فاستعير له هذا الوصف استقباحا و تشنيعا و إثارة إلى البشر.) [2] كما نلمس في أصواتها تنسيقا بديعا شكّل مدلولا لا يمكن التعبير عنه إلاّ بهذه الكلمة ، فكلّ

1- ابن عاشور ــ التحرير و التنوير ،الدر التونسية 1984م،40/27

2- الزر قاني ــ مناهل العرفان، دار الكتب العلمية بيروت 2003م،272/2

الأصوات مجهورة إلاّ الخاء مما يوحي إلى المبالغة في الوصف هذا الرجل وهو الوليد بن المغيرة الذي صار ذليلا بعد ما كان متأنّفا.

في القرآن نظام محكم ينتقي الكلمات المناسبة تجعل العقل خاضعا لها لدقّة النسيج القرآني في وسط السياق. بما يحتويه من ذلك قوله تعالى: (إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ) الملك 7 فكلمة (شهيق)متعلّقة بأحداث يوم القيامة فأصلها المعجمي (من شهق شهَق يشهق و يشهَق شهيقا وشُهاقا ردّد البكاء في صدره.) [1] فالقرآن ساقها في هذا المقام ليعرض صور يوم القيامة، فالكلمة بدلالتها المتمثّلة في الكرب الذي يلحق الكفار من غيظ جهنّم عليهم. وما يلفت الانتباه هو أنّ الكلمة مرتبطة بالسياق الذي يسّر السبيل للوصول إلى الحقيقة.

كما أنّ أصواتها تطابقت مع معناها وهذا حسب السياق القرآني، ولو ربطنا الأصوات والدلالة بالسياق لاكتشفنا أنّ الكلمة مشحونة بالتّذمر من هذه الفئة الفاجرة.

فالشين صوت ضعيف رغم صفة التفشي، والهاء يوحي إلى الغضب (إنّ هذا لصوت هو أساس الصيحات الانفعالية التي يصدرها الإنسان البدائي تلقائيا.) [2]، و القاف صامت قويّ لجهره وانفجاره وقلقلته .فورود هذه الكلمة في هذا السياق يكشف عن جوهر دلالتها و يرسم صورة المعاناة.

لقد وسّع القرآن معاني الكلمات، ووضع لها منهجا حتّى لا يضيق استعمالها ويثبّتها بغية تأدية الدلالة، فانتقي سياقا مطابقا لها ،فأيّ تغيّر إلاّ واستلزم تغيّرا في المحتوى تجنبا لتعارضه مع الدلالة، وهذا من خصائص النظام الدقيق الذي انفرد به القرآن قال تعالى: وَقَالُواْ (رَبّنَا عَجّل لّنَا قِطّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ) ص16 وظّفت كلمة(قِطنا) بكسر القاف قراءة الجماعة،ووردت في موضعها الملائم لما تثيره من معنى،وقد تخيّرها لقيمتها الصوتية والدلالية (فأصل القط الشيء

1- ابن منظور، لسان العرب، مادة شهق

2- إبراهيم كايد محمود ــ صوت الهاء في العربيةــ كلية التربية جامعة فيصل الأحساء،ص30

المقطوع عرضا.) [1] ولو عبّر عنها بكلمة أخرى كالقسط لتقلّص أثرها ،فاستعمالها يتطابق والغرض الحقيقي. إنّ وظيفتها تستجيب لمتطلبات السياق فهي توحي إلى(تعجيل العقاب بأن يكونوا سمَّوُا الحظّ من العقاب قطّا على طريق التّهكم.) [2] كما ارتبط الجانب الصوتي بالدلالة فالقاف صوت فيه قلقلة واستعلاء كذلك بالنسبة للطاء، وهذا يشير إلى الاضطراب الروحي و الكبرياء اللذيّن كانا مغروسين في قلوب الكفار،فاختيارها بهذه الدقّة حرصا على انسجامها الصوتي.

لقد أوجد القرآن كلمات غابت عن العرب أو ازدحمت مع غيرها في لغتهم فصعب عليهم تصوّر معناها، فاستعملها في سياقات ووضّح سبل استخدامها فأزال غموضها قال تعالى: (وَغَدَوْاْ عَلَىَ حَرْدٍ قَادِرِينَ) القلم 25 فقد هيّأ القرآن الجو المناسب لتوظيف كلمة (حرد) للتعبير عن غرض أراده فهذه اللفظة يقصد بها الجد والقصد ، فالقرآن لا يقف عند معجميتها بل يبحث عن دلالتها الإيحائية فيختار لها سياقا يرسم معناها، و يعزف عن الكلمات التي تقاربها في المعنى كالمنع ليبعد المفاهيم الموروثة ،فالقرآن يستقل بمدلول اللفظ، فهي في هذا المقام المنع بين حدّة وغضب ، فالقرآن يستثمر الكلمة و يولّد منها دلالة يفضح بها سريرة المشركين المريضة.أمّا على المستوى الصوتي فقد جعلها وسيلة لإبلاغ المراد .فصوائتها و صوامتها ليست حشدا صوتيا إنّما هي نظام يحمل دلالة فالحاء بخصائصها التي تدرجه ضمن الضعيفة، والراء بتكراره وجهرهّ يوحي إلى الصلابة و القساوة فهذه الصفات الصوتية جسّدت ضعف النفوس وشحّها.

فلكل صوت دلالته و لكل أصل لغوي دلالة تتمثل في معنى واحد في الأصل، لكنّه يحمل أشكالا وصورا.ففي القرآن الكريم تتنوع الأصوات في إيقاعها و معانيها، فالألفاظ متباينة فيما بينها لكنّها تأخذ نغمتها من طبيعة الأصواتّ وتستمد دلالتها من نمط صياغتها. فاللغة العربية مكونة من كلمات لها معناه ، وقد تنبّه العلماء قديما إلى هذه المسألة (و يعد الخليل منبع الاتجاه الذي توخى

1– راغب الأصفهاني (الحسين بن محمد بن المفضل) ،المفردات غريب القرآن، تحقيق:محمد سيد الكيلاني،دار المعرفة بيروت مادة قط

2– ابن عاشور، لتحرير و التنوير، 226/23

دراسة القيمة التعبيرية للأصوات ، ومدى اتفاق دقة المعنى مع جرس الحرف المختار؛ فقد شغلته الألفاظ المعبرة عن أصوات المسموعات ، و رأى فيها أصواتا محاكية للطبيعة،

و حاول إثبات نوع الصلة الطبيعية بين أجراس الحروف ثمّ بين أنغام الألفاظ و معانيها الكلية من جهة أخرى.[1]

فالعلاقة بين اللفظ والمعنى عميقة، فلا يقف أثر الصوت في الدلالة على الصوت المفرد بل هناك مراعاة للأصوات المجاورة في السياق. فدقّة استعمال الصوت في خدمة الألفاظ يحقق الجمال الصوتي (وليس يخفى إنّ مادة الصوت هي مظهر الانفعال النفسي ، وأنّ هذا الانفعال بطبيعته إنّما هو سبب في تنويع الصوت ، بما يخرجه فيه مدا أو غنّة أو لينا أو شدّة.) [(2)] فالقرآن يثوّر الكلمة لتعطي صورة محددة للمعنى لإثارة الفطرة(إنّ إيقاع اللفظ المفرد ، وتناعم الكلمة الواحدة ، عبارة عن جرس موسيقي للصوت فيما يجلبه من وقع في الأذن ، أو أثر عند المتلقي ، يساعد على تنبيه الأحاسيس في النفس الإنسانية، لهذا كان ما أورده القرآن الكريم في هذا السياق متجاوبا مع معطيات الدلالة الصوتية.) [(3)]

فالقرآن ينتقي من الأصوات ما يلائم المقام ليدلّ على المعنى ،فيؤثر بعض الصيغ ليكمل الدلالة بغية تأكيد القيمة التعبيرية للأصوات.فطبيعة القرآن الصوتية جمع كل مظاهر الدلالة وتنوع وجوه التعبير لتحقيق أبعاده(استعمل القرآن طائفة من الألفاظ ، ثمّ اختار أصواتها بما يناسب مع أصدائها ، واستوحى دلالتها من حسن صياغتها، فكانت دالة على ذاتها، فالفزع مثلا والشدّة ، والهدّة ، والاشتباك،والخصام ، والضعف دلائل هادرة بالفزع والمناخ القاتل.) [(4)]

---

[1]– انظر خالد قاسم بني دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن، ص18

[2]– انظر الرافعي،إعجاز القرآن و البلاغة النبوية،ط8 دار الكتاب العربي بيروت ، ص215–216

[3]–علي محمد الصغير، الدلالة الصوتية في القرآن[مقال]مجلة الإشعاع الإسلامي للدراسات و البحوث الإسلامية.إشراف صالح الكرباسي

[4]– علي محمد الصغير، الصوت اللغوي في القرآن، دار المؤرخ العربي بيروت، ص165

و المتأمّل في القرآن الكريم يجد أصواته كلّها مؤتلفة ، ومتناسقة و المعاني المقصود بها فهو يستعمل الصوت داخل الكلمة لخدمة المعنى ،وكل لفظ له مكانه يناسبه مع الدقة المتناهية لإبراز المعنى(لا جرم أنّ المعنى الواحد يعبر عنه بألفاظ لا يجزي واحد منها في موضعه عن الآخر إن أريد شرط الفصاحة؛ لأنّ لكل لفظ صوتا ربّما أشبه موقعه من الكلام ومن طبيعة المعنى الذي هو فيه والذي تساق له الجملة،و ربّما اختلف و كان بغير ذلك أشبه.) [1]

كما أعطى القرآن الاستعمال الدقيق للصوت في سبيل المعنى و الجمال الصوتي. و لقد تجّلت في الكتاب الكريم ظاهرة تكرير الصوت، و هذا لاقتران بعض الأوزان الصرفية بدلالات خاصة باللغة العربية ترجع في أصولها إلى الثلاثي غالبا ، وقد استحسنها القدامى كابن جني و قد نبه عليه الخليل وسيبويه من قبله.

ومن صور التكرير تكرير العين في الفعل الرباعي(ومن ذلك جعلوا تكرير العين في المثال دليلا على تكرير الفعل فقالوا:كسّر، و قطّع، و فتّح، وغلّق. وذلك لأنّهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل." [2] و هذه الصيغة تدل على التكثير "أغلقت الباب أو غلّقته على التكثير، وذلك إذا أغلقت أبوابا كثيرة أو أغلقت بابا واحدا مرارا أو أحكمت إغلاق الباب.)[3]

إنّها ظاهرة لغوية تبين أثر الصوت في دلالة اللفظ، و التلاؤم بين تكرير الصوت وتكرير الدلالة فيه. واستعمالها في القرآن الكريم يظهر قوة الصلة ،ويبقى القرآن مصدرا للبحث والدراسة ، وتظهر فيه الصلة بين أصوات الألفاظ ودلالتها قوية جدا، كما أنّ الأصوات تؤثر في دلالة الألفاظ وهذا حسب طبيعتها إن كانت مستعلية أو مجهورة أو مهموسة. فالقرآن الكريم وظّف اللغة توظيفا

[1]– الرافعي، إعجاز القرآن،ص226

[2]– نفس المرجع،155/2

[3]– راغب الأصفهاني ،مفردات غريب القرآن، ص266

فنيا، وتعامل مع دلالة الألفاظ فبلغ بها مبلغ الكمال الدلالي ثمّ أثراها من الجانب الصوتي ليحق أبعادا ذوقية.

إن لّغة القرآن تتّسم بالانسجام و سهولة الألفاظ مما حقّق لها صفاء صوتيا، وتدفق التلاوة بالمقارنة بكلام العرب (الألفاظ دالة على الأصوات، و قد توافرت في القرآن من الألفاظ الدقيقة عند إطلاقها، يكون اللفظ يدل على ذات الصوت، والصوت يتجلى فيه اللفظ نفسه.) [1]

إنّ القرآن يراعي تحقيق دلالة الصوت، ويحرص على الملاءمة بينه وبين دلالته دحضا للرتابة والتكرار. فالألفاظ القرآنية تستمد قوتها من الأصوات التي تتألف منها، و من السياق الذي تكون فيه أهميته في صياغة المصطلحات القرآنية التي أعطاها الكتاب دلالة جديدة، فلا يقتصر دور الأصوات على الصوت المفرد و إنّما تؤخذ من الأصوات المجاورة.

فأثر السياق في دلالة الألفاظ القرآنية انبثق عن نسيج الإعجاز القرآني. فكلّ كلمة بقيت أسيرة سياقها، كما شكّلت الدلالة نطاقا واسعا للكلمات لتفجّر مخزونها ، وقد ارتسم القرآن هذه الصلة ، واحترم اللفظ في سياقها فوقف عند دلالته ما ساعد القراء على فهم لغة النص القرآني الذي لا يمكن للمعجم الإحاطة بكلّ أبعاده .و هذه العلاقة كانت مؤسسة على منهج واضح غايته إثراء اللغة العربية، و خاصة الجانب الصوتي لارتباطه بكل المستويات ومنه المستوى الدلالي، وهذا ما انفرد به القرآن (و كان من فضيلة القرآن الصوتية أنّه استوعب جميع مظاهر الدلالة في مجالاتها الواسعة ، وتمرّس في استيعاب وجوه التعبير عنها بمختلف الصور الناطقة.) [2] وتغلب على النص القرآني المسحة الدلالية لتناولها جميع الدلالات المركزية والإيحائية و الاجتماعية، وهذا من خلال علاقة المسموع بالمفهوم والتغيرات السياقية.

---

[1]– علي محمد الصغير،الصوت اللغوي في القرآن203

[2]– علي محمد الصغير، الصوت اللغوي في القرآن ،ص165

ما نستخلصه على عاتق أهل العلم بتخطيط و هندسة مؤلفات ذات الصلة بالسياق، و لا يقف جهودهم عند هذا الحد بل تتعداه إلى استشراق آفاق المستقبل تقترن بالبحث تساعد المتعلم على تخفيف زخم الكتب المكتظة بالأفكار المتناقضة ، وتحسين طرق التواصل مع أهمية السياق في الدرس الصوتي والدلالي إلى أقصى حد ممكن دون أن ينعكس ذلك على تلوّث الفكر. وهذه مسؤولية تقع على عاتق العلماء مادام علمهم مرتبطا بالقرآن الكريم و هي مهام جسيمة يضطلع بها علمهم.

إضافة إلى ذلك أنّ أهم مظاهرها الأصيلة الاستقرار المرتبط بالإعجاز الذي أكسبه موقعه الحصين في لغة القرآن فجذب إليها الملكات النقيّة للعيش معها في أمن ، فكشفت عن أصالته في الفهم والقدرة على الابتكار، ولم تلبث حتى تمخّض عنها ازدياد في النشاط الصوتي و الدلالي في للدراسات القرآنية و اللغوية خدمة للقرآن الكريم لفهم ما يصعب من دقائق معانيه و توضيح جمالها الصوتي. فاستقرار الدرس صوتي شكّل أهم مقوماته لأنّه وجد الأرضية خصبة في النص اللغوي للقرآن الكريم للاستعانة به في الدرس الدلالي و التقعيد له، ووجود الحاجة العلمية عند المتعلّم في إتقان فهم علوم العربية و منها علمي الأصوات و الدلالة